



شيء عن الربع الخالي - لاتبينون وسكونيون

شيء عن الربع الخالي

الربع الخالي اسم لمنطقة شاسعة من الرمال تقع تحت اواسط جزيرة العرب الى الجنوب الشرقي بين المطينين ١٨ و ٣٤ من العرض الشمالي والمطينين ٤٦ و ٥٤ من الطول الشرقي. وهي منطقة لم يكن يعرف عنها العلماء شيئاً يذكر حتى ان المراتب الجغرافية كانت الى عصرنا هذا تغفلها بيضاء خالصة. وكتيراً ما تاق الرواد والمغامرون من عمبي الاكتشاف الى قطعها ودرس احوالها فلم يتسن لهم ذلك. الى ان قبض القدر لرجلين من مسترقي الانكليز باقام شيء من تلك الرغبة، فاخترقا الربع الخالي في السنين الاخيرتين: احدى عام، وهو المستر برنهام توماس، من الجنوب الى الشمال الشرقي، وذلك في سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١؛ وثانيها، وهو المستر ست جسون فلي، من الشمال الى الجنوب، في سنة ١٩٣٢. فكان من نتائج الرحلتين معلومات دقيقة عن تلك المنطقة من حيث تكوينها الجيولوجي وحوالها الاجتماعية، اودها العالمان كتابين قسبين. لمخص المهم منها السيد فؤاد حمزة، وكيل خارجية الحكومة العربية السعودية، في كتاب بعده للطبع عن احوال نجد والحجاز، ونشر فصلاً منه في مجلة المتطاب (فبراير شباط) ١٩٣٣، ص ١٧٧ - ١١٨٦ قال:

نعم ان الرحالتين توماس وفيلي لم يتمكنا من زيادة كافة اصقاع الربع الخالي، وبقيت أمام طلاب الارتياح مساحات اخرى يجب تعرف احوالها، الا انها وفقا بصورة جازمة الى ايضاح المهم من طبيعة هذه البلاد وتكوينها وما فيها من تضاريس طبيعية وحوال عمرانية واجتماعية مما نصفه باليجاز فيما يلي:

قال توماس: يتألف الربع الخالي من اراض صحراوية يكاد يكون قسمها الشرقي والجنوبي الى حد يقرب من ثلث مساحتها كلها عبارة عن اراضي الهضبات، والقسم الباقي عبارة عن اوتيانوس من الرمال المنتشرة نحو الشمال

والغرب . وتسمى الهضاب الجنوبية نجدًا ، والشرقية سيجا في قسمها الشمالي ، وجادة الحرايس في قسمها الجنوبي ، حالة كون المناطق الرملية معروفة باسم الرمل او الرمال ...

ويظهر مما امكن جمعه من نماذج الرمال والصخور المأخوذة من جهات مختلفة في الربع الخالي انه مكوّن من سطح كلي الاصل تكسو الطبقات العليا منه رمال يشوبها كثير من حبيبات الكلس والجير ، وقد وجد ترماس وقلبي بقايا متحجرات بحرية ومائية في جهات عديدة لا يدع وجودها مجالاً للشك في ان البحر كان في الاعصر الجيولوجية غامراً هذه المنطقة بياحه المألحة في العصرين الجيولوجيين المعروفين باسم العصر الايوسيني والكريتاسي .

واما ارتفاع الربع الخالي عن سطح البحر فيختلف بين ١١٠٠ و ٣٠٠٠ قدم . وهذا في ما يلي . ملخص وصف المنطقة التي اخترقها المتر توماس ، من الجنوب الى الشمال

نوع الارض	المسافة بالاميال
١ ارض مرتفعة ذات لون احمر تكثر فيها الاكثية	٣٠
٢ ارض مرتفعة اقل تضرراً ذات رمل احمر وفيها تلال تشبه نمل الغرس	٤٠
٣ سلاسل يضاء متوازية متعرضها اودية ذات رمل احمر	١٠٠
٤ رمال متواجرة ذات لون ابيض	٢٠
٥ رمال متواجرة ذات لون ابيض فيها تلال ذات لون احمر	٥٠
٦ هضاب وسبخات وتلال حراء على التوالي	٢٠٠

ولم يمكن التحقيق عن الرمال التي دعت بالبحر السافي ، وهي الرمال الرقيقة التي تبتلع الانتقال التي تطأها ، وانما قد تكرر ذكرها في جهات الاجتاف الى الغرب الجنوبي من الربع الخالي حيث ذكر الالمانى فون نردي كثيراً عنها ، واما ترماس فانه ذكر ارضا اخرى تدعى ام الصم تبلغ مساحتها يومين على سير الجمل في كافة الاطراف فانها مفراق لا يمكن اجتيازها ، والغالب انها من نوع السبخات التي تصادف في سائر انحاء البلاد العربية ، فاذا كان الجو رطباً كان العبور منها مستحيلاً لرخاوة طبيعتها وقلة مقاومتها للانتقال .

واما المياه في الربع الخالي فلها قليلة بل معدومة في جهاته الغربية وكلما اتجه الى الشرق ازداد مقدار المياه وقل عمقها داخل الارض ...

ونظراً لانعدام الماء (ما عدا ايام الامطار) في المنطقة الواقعة الى الغرب من الطريق التي سلكها توماس وهي المنطقة التي يصح ان يطلق عليها اسم الربيع الحثالي فان الحياة الحيوانية والنباتية تكاد تكون معدومة فيها . وقد ذكر المتر فليبي انه بعد خروجه من واحة جبرين لم يشاهد على طول الطريق الممتد الى اواسط الربيع الحثالي ثم من نيفا الى سليل اي انسان كان ، مع ان المدة كانت ٥٣ يوماً على سير الابل . والذي يتراعى لنا ان قلة ارتياد البدو لهذه المنطقة انما هو ناشئ في الغالب عن قلة المياه والمراعي اكثر مما هو ناشئ عن المغازر والمخاطر . . .

وقد ذكر لنا بعض من قابلنا من البدو الذين زاروا تلك الانحاء ان عشب الربيع الحثالي وماءه يجعلان دم الحيوان اسود فاحماً ، ولم يتسن لنا تحليل هذه الظاهرة الفسيولوجية الاً بملوحة المشب والماء . . .

واما من حيث العمران فقد كان الشائع عند البدو ان في الربيع الحثالي آثار عمران عديدة خلفها الاقدمون من حضارات بائدة ، وكانوا يتساقطون اقوالاً متناقضة عن وجود خرابيات في وبار القريبة من بئر مقيسة التي زارها المتر فليبي ورجدها بئراً غزيرة الماء ، وكان القول ان وبار هذه تقع على بعد مرحلتين او ثلاث من واحة جبرين وعلى طريق القوافل التجارية من ظفار ، وانها كانت تطير وتتحفي بفعل الرياح الموسمية التي تقشع الرمل عنها فتظهر آثار خرائب وقلاع وقصور عديدة حتى دعيت باسم قصور ام الحديد والحديدة . وقد حقق المتر فليبي بنفسه عن هذه الاشاعات وزار المكانين المشار اليهما يقمان ما بين درجتي الطول الشرقي ٥٠ و٥١ والعرض الشمالي ٢١،٣٠ و ٢٢ فوجد ان ما كان يسميه البدو آثار عمران وخرائب قصور دامرة ان هو الا بقايا مخروطة بركاني عظيم خمد منذ ازمة متطاولة وبعيت من آثار اندفاعه متحجرات بركانية محروقة ثقيلة الوزن وبلون الحديد فكان البدو يظنونها آثار قلاع وخرائب . وقد جلب المتر فليبي معه بعض حجارة هذه المنطقة وجلب ايضاً حبوب الدخان البركاني المتبار الذي يسميه البدو باللؤلؤ الاسود . وشاهدت كاتب الاسطر هذه الحبوب فاذا بها اصفر من حجم الحمص يقليل خفيفة الوزن سوداء اللون براقه

المظهر .

وسيكون من آثار رحلي توماس وفلي اللتين لحصنا ما كان مع نتائجهما العلمية ان الياض السذي اعتاد الناس تركه على خرائط البلاد العربية باسم « الربيع الحالي » سيلاً باسماء الاماكن والآبار والهضاب والرمال المختلفة ، وستنقص الحلسة التي كان يشر بها جميع من يعنى بالبلاد العربية لمعرفة حقيقة هذا القسم ، وتصح اسماء مقيمة وشنة ونيفا وابو بجر وهدبة ودكاكة وبني زيزان والعريوق وغيرها من الاسماء المعتادة كالدهنا والصان وخف وغيرها .

لاتيفيون وسكونيون

نشر مؤخرًا الاستاذ الشيخ انطون الجليل كتابًا في « شوقي » ، على قسط وافر من الاعجاب بالشاعر الكبير . فتاوله الاستاذ عباس محمود العقاد ، وهو من ايمد الناس عن الاعجاب بشعر شوقي ، بشيء من النقد نشره في جريدة « الجهاد » المصرية . ولما لم يثن ان يُقرّ اعجاب الجليل بشوقي ، ولما لم يثن ان يثدّد الرطاة على فقيد مصر ولم تفرغ الجرائد بد من نشر المراتي فيه ، اخذ يلمس للسجج مخرجًا يبرّر مدحه لشاعر الامراء . فلم يبرّ الا المتغابله بين طريقة النقد اللاتيني وطريقة النقد السكوني . فالاولى سطحية ، على زعمه ، تأخذ خصمًا بالجملة وما تتطلبه هذه من الاتاقة وادب الصالونات ، كما سيأتي ، والثانية متمسّقة لا تتمّ بالارواض الاجتماعية . واذاً فنقد الجليل المثنىء بالثقافة اللاتينية اقرب الى المجاملة منه الى الحكم الحقيقى الواضح . وهكذا يتنقد الاستاذ العقاد بانه برّر موقف الاستاذ الجليل في ما اصدره على شوقي من احكام مدحية تخالف الخفيفة . . .

قد يكون الاستاذ العقاد على شيء من الحق في اعتباره هذه الاحكام . اما تليله ذلك بسطحية المذهب اللاتيني في النقد فهو ما لا يوافق عليه كل من عرف اصول النقد العالمي الحديث وادرك كم هو دين لهذا المذهب اللاتيني الذي اجحف الاستاذ العقاد بتحميله تلك التبعة . وهو ما اهاب بالكتور طه حسين الى نشر فصل تبين في مجلة « الرسالة » الجديدة المّ فيه بكثير من صفات الثقافة اللاتينية والنقد الحديث ، فرأينا ان تقتطف منه ما يمسّ الموضوع عن قرب . قال بالمران اعلاه (الرسالة : العدد ١٥٢ : شباط ١٩٣٣ ، ص ٢٤)

واغرب ما في هذا الفصل الذي كتبه الاستاذ العقاد تناقض لست ادري كيف تورط فيه . وهو فيما اعلم من اشد الكتاب المعاصرين في الادب استقامة في الحكم . وايتارًا للقصد وحرصاً على الاحابة في التفكير . بدأ الاستاذ فضله بأن من السيد جدًا ان يوفق الناس الى الحق حين يصورن احكامهم على الامم

والشعوب . وعلل ذلك تعليلاً حسناً مستقيماً . ولكنه لم يلبث ان التمس لنفسه وسيلة للحكم العام على الامم والشعوب . بل على ما هو اعم من الامم والشعوب ، على الاجناس . فزعم اولاً ان للاتينيين مذهباً في النقد وان للسكسونيين مذهباً آخر وان هذين المذهبين يختلفان فيما بينهما اشد الاختلاف . وزعم بعد ذلك ان اخص ما يمتاز به المذهب اللاتيني « الاثاقه » . واخص ما يمتاز به المذهب السكسوني « البساطة » او « الفطرة » . وفسر هذا بانك اذا قرأت الناقد الفرنسي رأيت رجلاً انيقاً لبقاً يقدم في احد الصالونات كاتبه الذي يتقده على الاوضاع الاجتماعية المألوفة مجاملاً متكلفاً وقد يرمي ايماء خفيفاً الى بعض السيوب ولكن على سبيل النكتة او على سبيل الحيلة في التماس الدفاع عن هذا الكاتب الذي يتقده او الرجل الذي يقدمه الى الصالون . اما الناقد السكسوني فهو لا يحفل بالاوضاع الاجتماعية . وانما يهجم بك فوراً على الحياة الفردية على الحقيقة الانسانية ، على الرجل من حيث هو رجل لا من حيث هو فرد من جماعة . ومعنى هذا ان نقد اللاتينيين سطحي مخالف لاصول العلم وان نقد السكسونيين هو النقد العلمي الصحيح الذي تجرد فيه الفائدة وتجرد فيه النماء . وانا احب ان يعذرنى الاستاذ المتاد اذا قلت له في صراحة اني كنت انتظر منه كل شيء . الا التورط في هذا الخطأ الصارخ والتظلم المبين . فليس من الحق بوجه من الوجوه ان الاختلاف بين النقاد اللاتينيين والسكسونيين عظيم الى هذا الحد الذي يتصوره الاستاذ . فليس هناك نقد لاتيني ونقد سكسوني ، وانما هناك نقد فحسب . نقد يعتمد على هذا الذوق الفني العالمي الذي احدته الثقافة اليونانية اللاتينية وورثته عنها الامم الحديثة على اختلاف اجناسها وبيئاتها . فكل النقاد من الفرنسيين والايطاليين والالمانيين والانكليز قد قرأوا آيات البيان اليوناني واللاتيني وذاقوا آيات الفن اليوناني والروماني وكوّنوا لانفسهم او كوّنوا لهم هذه القراءة ذوقاً عاماً مشتركاً بينهم جيباً يختلف في ظاهره ولكنه لا يختلف في جوهره . لان هذا الجوهر واحد مستمد من هوميروس وبندار وسوفوكل وارتستوفان وافلاطون وسبيرون وتلسيت ومن اليهم . نعم وهذا النقد الحديث يعتمد على اصول اخرى غير الذوق ، اصول

تشبه العلم او تحاول ان تكون علماً . وضعها ارسططاليس ومن جاء بعده من نقاد اليونان والرومان وسموها علم البيان . يعتمد النقد الحديث عند الامم الاوربية هما تختلف اجناسها على هذين الاصلين : الذوق الذي تكونه الثقافة اليونانية اللاتينية، والعلم الذي وضعه ارسططاليس واصحابه . وللستاذ ان يدرس على مهل وفي اناة وروية من شاء . من النقاد المحدثين في اي امة من الامم الاوربية فيرى ان هؤلاء النقاد جميعاً يتفقون في ان تقدمهم يقوم على هذين الاصلين اللذين أشرت اليهما . فاذا اختلفوا بعد ذلك فانما يختلفون في الاشكال والصور باختلاف امزجتهم الخاصة وباختلاف البيئات التي يعيشون فيها ويكتبون لها .

غير جداً ان يقال اذا ان هناك نقداً لاتينياً ونقداً سكسونياً وان هذين النقادين يختلفان في الجوهر والطبيعة ، ثم اعتذر الى الاستاذ بعد هذا من أي لا استطيع ولا اظن ان احداً يستطيع ان يقره على رأيه في النقد اللاتيني ، بل انا لا اتقضي العجب من تورط الاستاذ في اعلان هذا الرأي الغريب . فليس من الحق ان النقد اللاتيني سطحي ، وليس من الحق ان هذا النقد يعتمد على الاوضاع الاجتماعية ويهمل الانسان من حيث هو انسان . هذا كلام لا يمكن ان يقبل مع ان من الاشياء المقررة التي يتلقاها الشبان في المدارس ان قوام الادب الفرنسي الكلاسيك انما هو بالضبط : الغاء هذه الفروق والاضاع الاجتماعية التي تمتاز بها الامم والشعوب فيما بينها بل التي تمتاز بها البيئات المختلفة في امة وبينها ، والاتجاه الى الانسان من حيث هو انسان ، الى هذا القدر المشترك بين الناس جميعاً من العقل والشعر . على هذه القاعدة يقوم الادب الفرنسي الكلاسيك كما يقوم عليها الادب اليوناني القديم . والادب كله بما فيه من شعر ونثر ونقد فكيف يقال في ادب يقوم على هذا الاصل انه سطحي على الظواهر والاضاع الاجتماعية .